ثانيا: مراحل تطور المجتمع الجزائري

01- تطور المجتمع الجزائري في العهد العثماني

شهدت الجزائر بعد الحاقها بالسلطة العثمانية مطلع القرن السادس عشر تحولات جذرية عميقة شملت مختلف مجالات الحياة السياسية الاجتماعية العسكرية وغيرها، وقد أثرت هذه التطورات بشكل واضح في المسيرة التاريخية للمجتمع الجزائري وطبعتها بطابع ميزها عن الفترات السابقة بحيث أن هذه الأوضاع استقطبت شرائح جديدة وفدت إلى الجزائر باختلاطها مع السكان المحليين ساهمت في تغيير البنية الاجتماعية لسكان الإيالة (حنان سلمي: الوضع الديمغرافي في الجزائر العثمانية وانعكاساته في القرنين 10-13هـ/16-19م).

يتشكل سكان الجزائر من نوعين: الحَضْر وهم سكان المدن الذين يعيشون من صناعاتهم التقليدية ومن الوظيف العمومي، والبدو وهم الرحل الذين يعتمدون في حياتهم على تربية الماشية، أو الريفيون الذين يعيشون من منتوج الأرض، وقد كان البدو في الجزائر يشكلون حوالي 95% من مجموع السكان، ويلاحظ أن سكان المدن في الشرق الجزائري لا يمثلون سوى 03%، بينما ترتفع هذه النسبة كلما تقدمنا نحو الغرب، حيث تكثر المدن، وأن البدوهم الأساس في ثروة البلاد، أما من حيث العدد فهناك اختلاف كبير حوله، لأن السلطات خلال العصر الحديث لم تكن تهتم بعمليات الإحصاء، ولكن معظم المؤرخين يجمعون على ثلاثة ملايين نسمة، وهو رقم معقول بالنسبة للفترة الأخيرة من العهد العثماني، أي بعد أن تعرضت البلاد لكثير من الأوبئة والكوارث الطبيعية مثل المجاعات والجراد، أما نهاية القرن الثامن عشر فإننا نؤيد رواية حمدان خوجة التي تذكر عشرة ملايين.

اتصف النمو الديموغرافي لسكان الجزائر في العهد العثماني بعدم الاستقرار، وعرفت الجزائر نموا ديموغرافيا كبيرا بسبب توافد الأندلسيين واليهود واستقرار مجموعة من الأتراك وبذلك تضاعف سكان المدن التي استقر بها الأندلسيون كالجزائر، تلمسان، مستغانم، شرشال...

يتكون المجتمع الجزائري خلال الفترة العثمانية من:

01- سكان المدن: يتكونون من :

أ) **الاتراك العثمانيون:** استقروا في المدن الجزائرية وشكلوا أقلية اجتماعية لكنها كانت هي الحاكمة والمسيطرة على السلطة والادارة.

ب) **الكراغلة:** شريحة تكونت نتيجة زواج افراد الجيش التركي نساء جزائريات.

ج) **الأعلاج:** يطلق هذا الاسم على المسحيين الذين اعتنقوا الاسلام.

د) الحضر: تتشكل هذه الفئة من المجموعات السكانية القاطنة بالمدن.

هـ) البرانية: تتألف من المجموعات السكانية التي هاجرت إلى المدن الكبرى للإقامة والعمل (بني ميزاب، البساكرة، الأغواطيون، الجيجليون، القبائل) .

و) الزنوج: استقدموا من السودان عن طريق الواحات الصحراوية.

ز) الاسرى المسيحون: هم أسرى الحرب من الاسبان، الانجليز والفرنسيون.

ك) اليهود: كان في الجزائر جالية يهودية محلية قديمة وأخرى جديدة هاجرت إلى الجزائر منذ أواخر العصور الوسطى من إسبانيا ايطاليا وفرنسا.

2) سكان الأرياف: يتشكلون من:

أ)قبائل المخزن: هي طبقة اجتماعية ريفية ذات صبغة فلاحية عسكرية وادارية تشكل حلقة وصل بين السكان والسلطة.

ب) قبائل الرعية: تنتمي أغلبها لقبائل **الأوطان** التي تتكون من أسر الخماسين والبحارين والرعاة والفلاحين المستخدمين من طرف ملاك الأحواش.

ج)القبائل المتحالفة: متعاونة مع البايلك تمثلها أسر إقطاعية كبرى كأسرة المقراني وأسرة بن قانة، تقوم بدور الوساطة بين القبائل المتمردة والسلطة الحاكمة.

د) القبائل المستقلة: مقيمة في الجهات النائية وعادة في المناطق الجبلية والأقاليم الصحراوية، وقد سمح موقعها أن تعيش شبه مستقلة عن السلطة الحاكمة ومن أشهرها: قبائل الحضنة، جرجرة...

توزيع السكان: كان لشساعة الجزائر وتنوع تضاريسها أثرا وانعكاسات مباشرة على توزيع السكان وكان كالآتي:

أ)سكان السهول: تقيم في المناطق السهلية القبائل المتحالفة والخاضعة للسلطة.

ب)سكان الجبال: تسكن بها مجموعة من القبائل تتمتع بنوع من الاستقلال .

ج)سكان الجنوب: يقيم في الجنوب عدد من القبائل ساعدها بعدها عن مواقع السلطة على أن لا تعترف بسيادة الإدارة العثمانية.(بشرى الدومي، فطيمة غزلي: الحياة الحضرية بدار السلطان أواخر العهد العثماني –مدينة الجزائر أنموذجا–)

02- تطور المجتمع الجزائري خلال فترة الاستعمار الفرنسي 1830- 1954 م

كان الاحتلال الفرنسي للجزائر عسكريا واستيطانيا معتمدا على استغلال الأرض والانسان معا، ومنذ البداية ابعدت فكرة تعمير المستعمرة بالفرنسين فحسب بل يفسح المجال لسكان شمالي أوروبا بالخصوص.

يرى أغلب المؤرخين بأن عدد السكان بالجزائر كان لا يتجاوز الثلاثة ملايين نسمة غداة الاستعمار الفرنسي سنة 1830 م، فيما يرى البعض منهم بأن عدد سكان الجزائر آنذاك قدر بـ 10 ملايين نسمة، ولقد عمل الاستعمار على تزييف هذه الأرقام ليبرر احتلاله على أساس أن الجزائر خالية تقريبا من السكان الذين لا يتعدى عددهم مليون نسمة حسب تقديره لهم، ويذهب البعض الآخر من المؤرخين، ومنهم" كزافييه ياكونو" على أن عدد الجزائريين أقل من ثلاثة ملايين، وهو رقم أقرب نوعا ما إلى الواقع، بدليل أنه لو كان عدد السكان 10 ملايين، فإنه لا يعتقد بأن الجيش الفرنس ي سينجح في عملية الاحتلال.(عميراوي احميدة وآخرون: آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري 1830- 1954).

وعن تطور سكان الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي عموما يقول "داريست مولين" (Dariste Moline) أنه في 1830م لم يتجاوز عدد السكان الأصليين في الجزائر مليون ونصف المليون نسمة، وفي عام 1856م وصلت بالفعل إلى حد 2307000ن، وفي عام 1900م كان يبلغ أربعة ملايين نسمة، وهو يتجاوز حاليا (1937م) 5400000 ن، وكان في أول إحصاء للسكان بالجزائر سنة 1856 م بلغ عدد السكان الجزائريين أكثر من 2307349 نسمة، وهذا دون حساب سكان بلاد القبائل ومناطق الصحراء، لأن منطقة القبائل لم تحتل إلا في سنة 1857 م، وأما الصحراء فلم يتم إحصاء كل سكانها واقتصر الإحصاء على شريط ورقلة عين الصفراء. (قريشي محمد: الأوضاع الاجتماعية للشعب الجزائري منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إلى اندلا ع الثورة التحريرية الكبرى 1945- 1954).

وإذا رجعنا إلى إحصائيات 1861 م –1871 م فإنها تؤكد أن عدد السكان الجزائريين قد انخفض إلى 2125052 نسمة، والسبب في ذلك يعود إلى الحروب والمقاومات الشعبية ضد المستعمر، زيادة على الأمراض والأوبئة التي انتشرت بالجزائر، مثل مرض" الكوليرا " سنة 1867 م والمجاعة موسم 1868 م /1869 م، حيث عرفت فيها المناطق الشمالية للجزائر عدة أمراض وأوبئة، إضافة إلى الكوارث الطبيعية، كما عرف المنتوج الفلاحي تناقصا رهيبا بسبب الجراد، وكنتيجة لذلك خلفت هذه المجاعة أكثر من 500 ألف وفاة في صفوف الجزائريين، وفي العموم عرفت نسبة الزيادة الطبيعية بالنسبة للسكان الجزائريين تذبذبا كبيرا، فقد وصلت هذه الزيادة إلى 03 % في الفترة الممتدة من 1872 م إلى 1886م، لتنخفض إلى 01.4 % خلال الفترة من 1886م إلى 1911 م، لتستقر أخيرا في حدود 02 % سنة 1953 م،

وهذا بحساب عدد المهاجرين المتواجدين بفرنسا، وهذه النسبة إذا ما قورنت بنسب الزيادة الطبيعية في العالم فهي نسبة عالية جدا. (رشيد ميلاد: التطور الديمغرافي للسكان الجزائريين بين سنوات 1900 – 1954).

أخذت زيادة عدد السكان الجزائريين زخما أكبر مع بداية القرن العشرين، والجدول التالي(رقم01) يوضح النمو الديمغرافي الذي عرفه السكان الجزائريين في هذه الفترة.

السنوات	1901	1911	1921
العدد (نسمة)	4072089	4740625	4923186

نلاحظ أن الزيادة وصلت ما بين 1901 م و 1911م إلى 668536 نسمة، أما ما بين 1911 م و 1921 م وصلت إلى182561 ، أي انخفاض نمو عدد السكان خلال عشر سنوات ب 485975نسمة، وهذا يعود إلى تجنيد الشباب في الحرب العالمية الأولى، وتعرض الجزائر إلى **أزمة اقتصادية** حادة، بسبب فساد الموسم الزراعي، نتجت عنه المجاعة، وبالتالي موت عدد كبير من السكان.

الجدول التالي(رقم 02) يمثل النمو الديمغرافي في الجزائر منذ نهاية الحرب العالمية الأولى إلى اندلا ع الثورة التحريرية سنة 1954 م.

السنوات	1921	1926	1936	1948	1954
عدد السكان الجزائريين	4923186	5150756	6201140	7690780	8449332
عدد السكان الأوروبيين	791370	833359	946013	922272	984000

يقدر عدد القبائل المستوطنة داخل ربوع إقليم قسنطينة بـ 580 قبيلة تتجمع أغلبها في شكل اتحاد قبلي يعرف بالكنفدراليات القبلية، استوطنت هذه الاتحادات القبلية خلال الفترة العثمانية وخلال القرن التاسع عشر الميلادي (ق 19م) عمالة قسنطينة، ونجد أن المجتمع الريفي بشرق الجزائر يتألف من عناصر عربية وأمازيغية، تلاحمت وتفاعلت واندمجت فيما بينها بفعل وحدة اللغة والعقيدة، ومن الصعب إعطاء إحصاء مضبوطا لعدد سكان شرق الجزائر وبالأحرى البلاد كلها وذلك بسبب حالة الحرب القائمة بينهم وبين جيش الاحتلال الفرنسي وتمنعهم من الانقياد والخضوع للإدارة الاستعمارية وإعطائها العدد الحقيقي لهم، وعلى هذا الأساس تضاربت إحصائيات قوائم السكان الحقيقية خلال القرن التاسع عشر الميلادي (19م).

أما عن سكان مدينة الجزائر ففي الواقع ليس هناك اتفاق بين المؤرخين حول العدد قبل الاحتلال فالقنصل الأمريكي "وليام شيلر"(William Chiler) الذي كتب قبل حوالي أربع سنوات من الاحتلال قد قدر سكان مدينة الجزائر بخمسين ألف نسمة، بينما قدرهم كاتب آخر بمئة ألف ساكن من بينهم خمسة آلاف يهودي، وزعم "بيليسي دي

رينو" الذي كان يكتب خلال السنوات الأولى من الاحتلال أن سكان الجزائر كانوا حوالي 250 ألف نسمة، أما حمدان بن عثمان خوجة الذي عاصر فترة الاحتلال فقد قال أن عدد السكان في الجزائر كلها بلغ عشرة ملايين نسمة، أما اللجنة الإفريقية التي زارت الجزائر بعد ثلاث سنوات من الاحتلال فقد قدرت عدد السكان قبل قدوم الفرنسيين بنحو35 ألف إلى 40 ألف نسمة في مدينة الجزائر وحدها، إن غياب الاهتمام ب**إحصاء السكان** وحلول الأوبئة الفتاكة إضافة إلى كون الجزائريين أغلبهم من سكان البدو الرحل يجعل من الصعب معرفة عدد سكان الجزائر، لكن من غير الممكن أن يكون بهذه القلة (طعبه حورية: السياسة الاقتصادية الفرنسية في عمالة قسنطينة 1871– 1954 م).

على صعيد البناء المجتمعي، استطاعت الإدارة الاستعمارية الفرنسية القضاء على أعيان المدن وأهل الحضر إلى حد بعيد، وقد حصل ذلك عن طريق الهجرة والتهجير والنفي والتفقير المقصود عن طريق هدم الأسواق والقضاء على الحرف والصنائع وإغراق الأسواق بالسلع الأوروبية، وبناء المدينة الأوروبية على أنقاض المدينة العربية في مختلف المدن، غير أن الإدارة الاستعمارية الفرنسية، وبمجرد أن تحقق لها ما أرادت، لم تستطع تحطيم البناء القبلي تحطيما كاملا لأنها كانت في حاجة إلى حل أزمة وجودها الحديث في الجزائر، لهذا سنجد السياسة الاستعمارية تتطور وفق، فبعد العملية الكبرى لمصادرة الأراضي التي قامت بها الشركات العقارية الرأسمالية الكبير، تم تحطيم القبيلة ككيان سياسي إلى دواوير بواسطة قانون السناتيس كونسلت 22 أفريل 1863 الخاص بالملكية وقانون وارنيي في 26 جويلية 1873 بعدها في عهد الجمهورية الثالثة الذي كرس مبدأ الملكية الفردية في أراضي الملك وتقليص أراضي العرش، وبذلك تم تهديم البنية الاجتماعية القبلية ونمت فكرة الأحادية بدل الجماعة بفعل سياسة التجميع.

هكذا إذا كانت ملامح المجتمع عشية بداية القرن العشرين، لقد تميز إذا مع بداية القرن بوجود نخب يمكن تصنيفها وفق ما يلي:

– نخبة سياسية تتألف من الموظفين التابعين للسلطة الاستعمارية (القايد، الآ غا، الباشاغا ،...) ومن قدماء المحاربين مع السلطة الاستعمارية.

– نخبة اقتصادية تتألف من التجار ومن فئة راقية عقارية جديدة.

– نخبة مثقفة تكونت خاصة من المتعلمين خريجي المدارس الفرنسية من أطباء، محامون، موظفون، معلمون، صيادلة، إداريين وحتى سياسيين غير أن الفرص السياسية لهذه الطبقة التي سميت بالمتطورة كانت رغم هذا محدودة كما أعيق تطورها السياسي أيضا .وظيفتها هي الأخرى المحافظة على نفوذ الاستعمار وسلطته باعتبارهم وسطاء بينه وبين المجتمع المحلي(ليلى تيتة: تطور البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري خلال القرن التاسع عشر)

لقد تفكك المجتمع الجزائري وتغيرت تركيبته بحيث اختفت الطبقة الأرسطوقراطية التقليدية بعد تحطيم العائلات الجزائرية الكبرى التي كانت تمثل القيادات الروحية والمادية للمجتمع الجزائري، واضمحلت البرجوازية في المدن والتي كانت تتألف من التجار والحرفين والقضاة والمثقفين بعد أن هاجر الكثير منهم والباقي نافسهم الأوروبيون في أنشطتهم، وافتقرت طبقة الفلاحين الذين جردوا من أراضيهم وأرغموا على بيع ما بقي منها نتيجة إرهاقهم بالضرائب، هذه الطبقة الأخيرة كانت تمثل غالبية الجزائريين حيث شكلوا سنة 1893نسبة 93 %، بعد ذلك توجهوا إلى المدن الكبيرة والعديد من مراكز الاستيطان وأصبحوا تجارا وحرفيين وأصحاب محلات وموظفين.(فتيحة سيفو: الجزائر في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وظروف ميلاد حركة الشبان الجزائريين).

ثالثا: تطور المجتمع الجزائري بعد الاستقلال

إن عملية التحول الديمغرافي هي نتيجة التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي يمر بها المجتمع ويعد **النمو السكاني** من أبرز الظواهر الديموغرافية في العصر الحديث ويرتبط نمو السكان بالزيادة الطبيعية وتعتبر **التحولات الديموغرافية** التي مرت بها الجزائر.

من أهم العوامل المؤثرة في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والتي بدورها أدت إلى حدوث مجموعة من الانعكاسات التي كان لها الأثر على تطور السكان والذي شهد عدة تغيرات واضحة خاصة في **التركيبة العمرية** السكانية يمكن تقسيم التحول الديموغرافي الذي مرت به الجزائر بعد الاستقلال إلى ثلاث مراحل:

أ) **المرحلة الأولى 1970/1954**: اتسمت بزيادة استمرار معدل الولادات حيث وصلت سنة 1970 إلى أعلى قيمة لها 5%،وشهد معدل الوفيات تقلبات عديدة وبلغ 1.67% ليصل معدل النمو الطبيعي إلى 3.34%.

ب)**المرحلة الثانية 1992/1971**: عرفت هذه الفترة انخفاضا محسوسا في عدد الولادات مع انخفاض مستويات الوفيات ،فقد سجلت الولادات 1.14% أما الوفيات فقد سجلت 0.44% فكانت النتيجة تباطؤ النمو الطبيعي وهذا راجع إلى الحملة الكبيرة من طرف الدولة في نشر مراكز حماية الأمومة والطفولة على المستوى الوطني وتوعية الأفراد بفكرة **التنظيم العائلي** مع توفيرها لموانع الحمل.

ت)المرحلة الثالثة 1992 إلى يومنا هذا: خلال هذه الفترة كان معدل الوفيات شبه 0.6%، أما مستوى الولادات فقد شهد انخفاضا شديدا وهذا من نتائج برنامج التخطيط العائلي الذي بادرت الجزائر في تطبيقه وكنتيجة لثبوت الوفيات وتراجع الولادات فقد انخفض معدل النمو الطبيعي إلى 1.57% ويعتبر المستوى الذي وصلت اليه الوفيات جد متطور، واستمر النمو الطبيعي بنفس الوتيرة.

(بن النوي عائشة: التحول الديموغرافي واثره على تغير هيكلة وتوزيع الفئة النشيطة في الجزائر في الجزائر للفترة ما بين 2008/1992).

يقدر عدد السكان الجزائريين حاليا بـ 43.8 مليون نسمة مقابل 34.6 مليون في تعداد عام 2008 ، بحيث تزايد بـ 9.3 مليون نسمة أي بمعدل سنوي متوسط قدره حوالي 2.04 ٪ خلال هذه الفترة، وكان هذا المعدل 3.21 ٪ بين 1977 - 1966، و 3.08٪ بين1987 - 1977 ، و 2.27٪ خلال الفترة 1998 – 1987 و 1.6 ٪ بين سنتي 1998 و2008، ووفقًا لتوقعات الديوان الوطني للإحصاء سيستمر عدد السكان في الزيادة إلى 51.3 مليون في سنة 2030 و57.6 ملايين نسمة 2040.

ملاحظة 01: سنتطرق إلى تطور التركيبة السكانية في محاضرة لاحقة.

ملاحظة 02: شرح المفاهيم المضللة والتي تحتها خط.